بحثًا عن الفردوس المفقود

سنان أنطون

- ١ -

عالَمُ اليوم تَستعمره الصورةُ ويَحكمه المشهدُ بامتياز. فالحدث ـ أو الأحداث ـ صارت تُختصر بمشهد يتيم لا يستغرق أكثرَ من ثوانٍ معدودة، يعاد ويُجترّ بصورة طقوسية آلافَ المرات حتى يترسَّخَ في الوعي واللاوعي الجمعييْن. ثم يتم استدعاؤه واستذكارُه تلقائيًا ولاشعوريًا ليتولّى، عند الحاجة، توزيعَ وترتيبَ المعاني والمشاعر المرتبطة بهذه اللحظة أو تلك وتفسيرَها بسطحيةٍ فجّة. وغالبًا ما يُبسِّط هذا المشهدُ التعقيدات، ويستأصل الجذورَ والسياقات، ليَسْهل تعليبُه وتسويقُه. فنراه، في نهاية المطاف، يُخفي ويَطمس أكثرَ مما يُظهر. وهكذا هو الحال مع مشهد سقوط تمثال صدّام في ساحة الفردوس في بغداد في نيسان الماضي والذي بات «المشهدَ» الذي يَرْمز إلى سقوط النظام ويَختصره.

- ٢ -

كنتُ أَحلم، كملايين العراقيين، بأن يكون هذا السقوطُ على يد الشعب وأن تُعْلِنَ نهايةَ النظام انتفاضةٌ شعبيةٌ عارمة أو ثورةٌ كاسحة. لكنْ، وللأسف، حالت عوامل وقوى عديدة ومختلفة دون ذلك. منها دمويةُ النظام وضراوةُ أجهزته القمعية، وسياساتُ ومصالحُ حلفائه وأصدقائه الذين انقلبوا بحربائية رشيقة أعداء حين انتفت الحاجةُ إلى خدماته، بالإضافة إلى التعقيدات والعوامل الخارجية والداخلية الأخرى، بما فيها تاريخُ العراق الحديث وتعرُّجاتُه وخصوصياتُه. لقد حَتَّمتْ كلُّ هذه، مجتمعةً، أن يُحْرم العراقيون، المنهَكون أصلاً والمثخَنون بجراح الحروب والحصار، من الظروف والأدوات التي تمكِّنهم من إسقاط النظام بأنفسهم. وهذا لا يعني أنّه ما كان لهذا النظام أن يسقط بغير الحرب، ولكنّ المفارقة هي أنّ الحرب كانت تتويجًا لسياسات مزَّقت الشعب العراقيّ وضمِنتْ عدم سقوط النظام، بل وصادرتْ إمكانيات إسقاطه أيضًا. كما أنّ العراقيين حُرموا حتى من التلذذ بفرحةٍ لا تشوبها شائبةٌ لزوال هذا الكابوس الطويل. فهذه اللحظة، التي انتظروها منذ عقود طالت، جاءت بضريبة باهظة حين تطابقتْ وتزامنتْ مع لحظة الاحتلال وارتبطتْ بالاستعمار الجديد (وها هنا تَكْمن معضلةُ المرحلة الراهنة والقادمة). كما أنها ـ أيْ لحظة سقوط النظام ـ جاءت بعد خراب آخر يضاف إلى ركام الحروب والحصارات، وهو خرابٌ حَصَدَ ما لا يُحصى بشرًا وما يَصْعب تعويضُه بنيةً تحتيةً ونفسيةً.

سأركّز على لحظة سقوط التمثال والحيِّز الذي كان يحتله كبؤرةٍ مُثْمرةٍ لمساءلة بعض الأفكار السائدة عن المرحلة الراهنة. فبعضُ تعقيدات هذه اللحظة ورمزيتها وردودِ الفعل إزاءها وبُعيْدها يكاد يماثل ويَعْكس الآراءَ والطروحاتِ المتعلقةَ بكيفية التعامل مع عراقِ ما بعد صدّام.

- ٣ -

قيل الكثير عن كون المشهد «مفبرَكًا» وعن احتمال اندساس بعض المأجورين لكي يَرقصوا حول التمثال المتهاوي وما إلى ذلك. لا شكّ بأنّ اختيار الموقع والتوقيت ليس بريئًا وعفويًا البتة، لكنْ مهما اتضح بشأن وجود أو عدم وجود معارضين محترفين اشتركوا في إسقاط التمثال، فإنّ ذلك لا يُلغي أو ينفي حقيقةَ الكره اللامتناهي الذي يكنّه العراقيون لصدّام ورموز مرحلته وصِدْقَ مشاعر الغالبية. لقد دُعِسَ على الطاغية ومُزِّقَتْ صورُه و شُوِّهتْ جداریاتُه وأصنامُه في كلّ زاوية من زوايا العراق بوجود الدبّابات الأمريكية والبريطانية وبغيابها، وأمام عدسات الصحفيين وبعيدًا عنها. ولقد تمنّى الكثيرُ من عراقيي الشتات، حتى أولئك الذين عارضوا الحربَ، وكاتبُ السطور منهم، لو أنهم كانوا في الداخل كي يشتركوا في هذا الطقس المعبِّر. على الكثير من العرب أن يتفهَّموا أو أن يحاولوا، على الأقل، تَفَهُّمَ مشاعر العراقيين ومرارتِهم وأن يفرّقوا بين التشفّي بسقوط نظام دمويّ والتهليلِ للاحتلال ـ وهما فعلان حاولتْ أجهزةُ الإعلام الأمريكية خلطَهما بعضًا ببعض. يجب ألا تترجَمَ الفرحةُ بسقوط النظام على أنّها اعترافٌ بشرعيةِ الحرب أو بوجود القوة التي أَسقطت النظامَ بعد أن دعمتْه لسنواتٍ طوالٍ وساهمتْ في إطالة تسلُّطه. وحتى إنْ شوهدتْ مشاعرُ أو

بحثاً عن الفردوس المفقود

تعابيرُ محابيةٌ للاحتلال هنا أو هناك، فهي ضئيلة ومعزولة ولا تمثِّل الاتجاهَ العامَّ الذي بات واضحَ المعالم.

- ٤ -

لقد سَقط صدَّام، لكنّ بغداد والعراق بأكمله سقطا معه، وبسببه، في يد الإمبراطورية الأمريكية. ومن الطبيعيّ والإنسانيّ أن نبكي وبحرقة سقوطَ عاصمةٍ عربيةٍ لها مكانةٌ أسطوريةٌ في الذاكرة الجمعية للعرب ولها عمقٌ تاريخيّ وحضاريّ لا يضاهى بين مدن العالم أجمع. لكنْ يجب أن نَحْذر من السقوط في فخٍّ طالما سَقَطْنا فيه من قبلُ. فلقد انجرف الكثيرون إلى الرثاء والبكاء على الأطلال، وما أبرعَنا في هذا! ولدينا من تاريخه ورموزه وأدواته ما يكفي كي نَغْرَقَ ونستغرقَ فيه لأمد طويل. لكنَّ الإفراط في الندب و البكاء هو ترف لا وقت له الآن. كما أنَّه أسهلُ بكثير من مواجهة الواقع المرّ وتحدياته، خصوصًا إذا ما كنّا نرغب في دعم العراق وإنقاذِ ما يُمكن إنقاذُه، فعلاً لا خطابةً. فالأشهر القادمة هي التي ستُرْسم فيها خارطةُ العراق السياسية وستتحدَّد خلالها الكثيرُ من معالم مستقبله، وهي أرضيةٌ لمعركة مهمة وحاسمة يجب أن نعي خطورتَها وتضاريسَها مهما بدت وعرةً ومستحيلةً. ويجب، في الوقت ذاته، أن نسجِّل الإيجابياتِ المحتملةَ وأن نُحْسن استغلالَها.

فبالرغم من كل الخراب والخسائر، هناك الكثير مما يدعو إلى التفاؤل. لقد فوجئ الجميعُ بالحسّ النقديّ العالي لدى غالبية العراقيين تجاه الخطاب الأميركيّ والممارسات المرتبطة به. ولعلّ من سخرية القدر أنّ العيش تحت نظام شموليّ لثلاثة عقود يَسْلب الفردَ إنسانيتَه وحريتَه والكثيرَ الكثيرَ، لكنَّه يزوده ـ في الوقت ذاته ـ بقدرةٍ غريزيةٍ على قراءة الخطاب السياسيّ بطريقة نقدية ودونما انخداع بالشعارات الرنّانة وبالوعود الكاذبة. قد تَمْلك الولاياتُ المتحدة أشرسَ قوة عسكرية في التاريخ، لكنَّها أيضًا تَمْلك من الغطرسة والعنصرية المقرونة بالجهل المؤسساتيّ ما يكفي لكي يشكِّل نقاطَ ضعفٍ مهمةً يُمْكن استغلالُها لمقاومة خطابها وجبروتها العسكريّ وتحقيقِ انتصاراتٍ مهمةٍ ضدَّهما. صحيح أنَّ بغداد والعراق قد سقطا، لكنّ الذي سَقَط معهما أيضًا هو الكثيرُ من الحسابات والرهانات الأميركية على انقسامات العراقيين الداخلية من جهة، وردودِ فعلهم إزاء زحف الدبابات الأميركية وبعض العملاء الذين اصطفّتهم للترويج لمخططاتها في العراق من جهة أخرى. لقد أَسْرف الصقورُ في الاستماع إلى المستشرقين الذين عَشْعَشَ الخرفُ في عقولهم من أمثال برنارد لويس، وإلى مقلِّديهم الجدد من أمثال كنعان مكّية، وإلى الذين يردِّدون ببغاويةٍ ما يُطْرب أسماعَ الصقور دون أن يكون له علاقةٌ بالواقع السياسيّ والاجتماعيّ. لقد وَعد هذا «الخبيرُ» المسكينُ الأميركيين بعراقيين يَنْثرون الرزَّ والحلوى، ففوجئ وفوجئوا بأنّ غالبيةَ العراقيين من التعقيد والعمق والوعي بحيث يُمْكنهم أن يتَّخذوا موقفًا نقديًا مزدوجًا يَرفض الدكتاتوريةَ والإمبرياليةَ ومخطَّطاتِها في وقت واحد. يكفي هنا أن نشير إلى الفشل الذريع الذي مُنِي به أحمد الجلبي، رئيسُ المؤتمر الوطنيّ العراقيّ، والذي كان الصقورُ يعوِّلون ويراهنون عليه كرئيسٍ لعراقِ ما بعد صدَّام يمرِّر لهم مشروعَهم ويسوِّقه للعراقيين. مازال الجلبي، وسيظلّ، معزولاً عن الشارع العراقيّ. ولقد ساهم هو في زيادة عزلته الفعلية والرمزية باختياره نادي الصيد مقرًا له ولزبانيته ـ وكان الصيد من الأماكن المفضَّلة لدى رموز النظام والطبقة الغنية التي ينتمي إليها الجلبي ـ وبسماحه لمرتزقته من القوات العراقية «الحرة» بأنْ يشتركوا في النهب والسلب، الأمرُ الذي سَبَّب لهم مشاكلَ حتى مع أسيادهم الأميركيين. ومازالت سمعةُ الجلبي في بعض الحلقات في واشنطن أفضلَ بكثيرٍ من سمعته في بغداد؛ فقد انتشرتْ عبارات «الجلبي حرامي» على الكثير من جدران بغداد وبات يُعْرف بـ «علي بابا» في الشارع العراقيّ. ولعلَّ أسطعَ دليلٍ على تخبُّط الأمريكيين وارتباكهم في إدارة العراق كمحتلين هو فشل جاي غارنر في مهمته وتعيين پول بريمر بديلاً له.

- ٥ -

لم يتمكن العراقيون من إسقاط التمثال (والنظام) وحدهم. ولن نَعْرف أبدًا إذا ما كانوا سيَقْدرون على ذلك لو تُركوا على رَسْلهم، أو على

لحظة سقوط النظام جاءت بضريبة باهظة حين تزامنتْ مع الاحتلال وارتبطت بالاستعمار الجديد

الأقلّ دون أن يعوّقوا ويُعَرْقِلوا. وكان لا بدَّ من السلسلة الحديدية التي امتدّت من المدرَّعة الأمريكية لكي يُقتلع التمثالُ الذي كان يقف على قاعدة أَسْهمتْ أمريكا في بنائها وفي دعمها. وإذا كان عراقُ ما بعد صدَّام قد وُلد مرتبطًا بالحبل السُّريّ الأميركيّ ومشوَّهًا بهذا الارتباط، فإنّ العراقيين قد سارعوا إلى قطع هذا الحبل بوضوح قُطعتْ معه شكوكٌ كثيرة. و بدأوا، بطُرقٍ شتى، يعبِّرون عن رفضهم للقيود التي كبّلهم بها الاحتلالُ، ولتلك التي يحاول تكبيلَ مستقبلهم بها عبر عقودٍ وُقِّعتْ وبنًى سياسيةٍ واقتصاديةٍ يحاول فرضَها بسرعة. ولئن كان تذمُّر العراقيين، ورفضُهم للاحتلال ولفشلِ الولايات المتحدة في تحمُّل مسؤولياتها كطرفٍ محتلٍ طبقًا للاتفاقيات الدولية، قد اقتصرا إلى الآن، بشكل عامّ، على المظاهرات والاحتجاجات، فإنّ صبرهم قد أوشك على النفاد. وقد تُضطرّ الولاياتُ المتحدة إلى مواجهة أساليبِ رفضٍ ومقاومةٍ أكثرَ عنفًا يَصعب امتصاصُ زخمها، الأمر الذي قد يؤدي إلى وقوع خسائر كبيرة بين صفوف جنود الاحتلال. وبإمكان هذا أن يَقْلب كلَّ الموازين والمعادلات، خصوصًا على صعيد الرأي العام الأميركيّ وتشعُّبات السياسة الداخلية الأميركية التي تؤثِّر، بشكل أو بآخر، على السياسة الخارجية.

- ٦ -

من المفارقات التي لا بدّ من الإشارة إليها هي أنّ المخطَّط الأميركيّ يَحمل بعضًا من بذور فشله في طيّاته. فلقد أدّى وجودُ الأميركيّ المحتلّ كـ «آخر» إلى أن يحلّ محلّ «الآخر» المحليّ على اختلاف تمظهراته. فتكاتَفَ العراقيون بسرعة، وتمّ التغاضي عن الكثير من الانقسامات الحقيقية والأحقاد التي ساهم النظامُ في ترسيخها خلال عقود ثلاثة، من أجل مواجهة «الآخر» ـ الأخطر والأكثر تهديدًا ـ عبر مقولاتٍ وهتافاتٍ تشدِّد على الوحدة الوطنية. لا يعني هذا بالطبع زوالَ هذه الانقسامات والحساسيات، لكن من الواضح وجود إجماع على أولوية رفض الاحتلال وضرورة زواله بأسرع ما يُمْكن. كما أنّ من الواضح أنّ هويةً عراقيةً جديدةً هي في طَور التشكل، وبإمكان المرء أن يتلمَّس ـ من خلال مراقبةِ ما يجري في ساحة الفردوس بشكلٍ يوميٍّ والانصاتِ إلى الأصوات المتصاعدة من العراق ـ ظهورَ بوادرِ مجتمعٍ مدنيّ عراقيّ وبدايات خطاب سياسيّ تعدديّ جديد بدأ يخطو خطواتِه الأولى من خلال مظاهرات لمختلف الفئات والقوى، وكذلك على صفحات الجرائد التي بدأتْ بالانتشار بسرعة. ولا شكّ أنّ هذا الحيِّز المهم سيتسع بظهور قنوات أخرى وبوصول بثّ الفضائيات العربية إلى المزيد من العراقيين الذين حُرموا منها لسنين. ومهما سجَّلنا من اعتراضات على الفضائيات العربية فإنَّها تَلْعب دورًا أساسيًا وتوفِّر حيِّزًا مهمًا للتحاور وتتيح لعراقيي الداخل الاستماعَ إلى الكثير من الأصوات العراقية المغايرة والمستقلة في الشتات وفي الداخل. قد يقول قائلٌ بأنّ القوى الوحيدة التي أَثبتتْ وجودَها جماهيريًا وتنظيميًا على الساحة العراقية هي القوى الإسلامية. السبب يعود، جزئيًا، إلى امتلاك هذه القوى التراتبيةَ والبنى والشبكات المؤسساتية التي تم تفعيلُها بسرعة. ولكنْ بمرور الوقت، وبشيءٍ من الاستقرار النسبيّ، سيتسنى للأحزاب العلمانية العائدة والجديدة أن ترسِّخ أقدامَها وتستقطبَ مؤيِّديها وتُغْنيَ الخطابَ السياسيّ وتساهِمَ في صياغته.

- ٧ -

حاول صدّام، ونجح إلى حد بعيد، في أن يتماهى مع العراق وأن يَصْهرَه في شخصه، حتى بات يَصْعب أو يَسْتحيل تمييزُ واحدٍ عن الآخر. قد يكون هذا واحدًا من العوامل التي أدت إلى أن يطولَ النهبُ والسلبُ والتخريبُ كلَّ مؤسسات الدولة وبناها التحتية. لم تكن غالبية المواطنين تشعر بأنّ الدولة والبلد مُلْكٌ للعراقيين، بل هما ملْكٌ شخصيّ للأب القائد وللنظام وللعشيرة. فلطالما سَرَقَ النظامُ و«فَرْهَدَ» وجَعل السرقةَ والنهبَ من الشعب ومن الجار «الكويت» تقليدًا راسخًا. كما أصبحت الحدودُ بين جيب «السيد الرئيس» والمالِ العامّ ضبابيةً أو معدومةً في كثير من الأحيان. وكذا الحالُ مع بقية أفراد العائلة والنظام. وعندما حانت الفرصةُ للانتقام،

بحثاً عن الفردوس المفقود

استيقظ المغوليُّ الداخليُّ الذي أجاعه النظامُ وجَرَّعه العنفَ والحروبَ لعقود طويلة، والذي نَخَرَ روحَه الحصارُ الاقتصاديُّ لأكثر من عقد، فحَطَّمَ وسَرَقَ وأَحْرق كلَّ ما كان مسجَّلاً باسم جلاّده وما كان يَحْمل صورتَه أو اسمَه. وجرى كلُّ هذا تحت أعين الجلاّد الأميركيّ الأكبر، المتلذِّذِ بسادية بما يَحْدث والذي سيَرْبح ثمنَ كلِّ ما يُسرق ويُنهب ويُحرق لأنَّ شركاته هي التي ستبني وتزوِّد بعد أن رَسَت عليها العقودُ.

لكن، اليوم، وقد غاب صدّام إلى غير رجعة، بدأ الذين كانوا يميِّزون بين الوطن والطاغية في تضميد جراح الأول. وهاهم بشوقٍ إلى أن يعيدوا بناءه ويحرِّروه من المحتل. وقد يدرك المزيدُ بأنّ الوطن هو ملْكُ الجميع ولن يكون أسيرًا بعد أن يعود إلى أهله. ليس هذا كلامًا شعريًا، فقد ظهر الكثيرُ من الطلاب على شاشات التلفزيون وهم ينظِّفون قاعاتهم الدراسية ويُصْلحون أبنيةَ جامعتهم المنهوبة لكي يواصلوا السنةَ الدراسية. وهناك الكثير من الحالات المشابهة التي تَبعث على التفاؤل في مجالات أخرى في العراق. فهناك مواطنون ومواطنات يدركون ويُدْركن بأنّ مصير البلد ومستقبله وحريَّته كلَّها تعتمد على كلّ واحدٍ وواحدةٍ منهم ومنهنّ، وبأنَّه لم يعد ملْكاً للواحد الأحد الذي تَرَكه للمحتلِّين واختبأ.

- ٨ -

كنتُ أتسكّع في أحد مساءات بغداد في أواخر الثمانينيات. قبل أن أصل إلى ساحة الجنديّ المجهول شاهدتُ عددًا من السيارات تتباطأ وأخرى تتوقف ليترجَّل منها بعضُ ركابها. كان الكلّ يراقب الآلةَ الضخمةَ التي كانت تحطِّم نصبَ الجنديّ المجهول بضربات متتالية. كان على النصب الجميل والبسيط أن يتحطم لكي يفْسح المجالَ لنصبٍ جديدٍ يمثِّل قيمَ المرحلة ورموزَها أُقيم في مكان آخر من المدينة بالقرب من القصر الجمهوريّ. شاهدتُ امرأةً تنتحب، ولم أفاجأ بذلك؛ فلقد كان النصب جزءًا من النسيج الجماليّ والبصريّ للمدينة، وكان تهشيمُه جرحًا آخر يُضاف إلى ذاكرتها وجسدها. أما النصب الجديد فكان عبارةً عن درع ضخمة، قوامُها خمسمئةٍ وخمسون طنًا من الحديد الصلب، وقف على حافته ليمثِّل لحظةَ سقوط الجنديّ في ساحة الوغى. وكان تصميمُه وشكلُه النهائيّ يجسِّدان عنفَ المرحلة وضراوتها وبشاعتها. أما النصب المتهاوي فكان قد شُيِّد في عهد عبد الكريم قاسم ويقال إنّه تأخر ذاتَ يوم في الوصول إلى مكتبه في وزارة الدفاع لأنه جلس يتناول الشاي مع العمّال الذين كانوا يبنون النصب. كان صدّام حسين واحدًا من الذين حاولوا اغتيال قاسم «لانفراده بالحُكْم» كما تَعَلَّمْنا في المدارس! ولم تنجح المحاولة، لكنّ قاسم قُتل في انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ الذي أوصل حزبَ البعث إلى السلطة. وأمر صدام بعد سنوات بإزالة النصب الذي ارتبط بقاسم وبشبحه، وظلت الساحةُ فارغةً لأكثر من عقديْن، قبل أن يتوسط فردوسَها تمثالُ صدّام الضخم الذي أُسقط ـ هو الآخر ـ في نيسان الماضي. فلكلّ طاغيةٍ خريفٌ، وإنْ تأخَّرَ بعضَ الشيء. وهذا ينطبق على الأميركيين أيضًا، فخريفهم قد بدأ في الحلول. لكنْ هل يعرف الأميركيون تاريخَ ساحة الفردوس، وهل يتعلّمون؟

اليوم يقف الجنود الأمريكيون في مواجهة العراقيين على أرض (ساحة) الفردوس. لقد تخلَّص العراقيون من جحيم لا تزال آثارُه تَزحف على وجوههم وأرواحهم وأيامهم، لكنَّهم أُدخلوا في جحيم آخر يَعِدُهم صانعوه ـ كما وعد آخرون من قبل ـ بالفردوس. يَعْرف العراقيون من أرشيف الحزن والمعاناة والقهر ـ ذلك الأرشيف الذي لا يُمْكن حرقُه أو نهبُه ـ أنّ الآخرين لا يَصنعون الفردوس. لا بل قد يَعلمون، أكثرَ من غيرهم، أنَّ الفردوس أسطورةٌ نَسَجها أجدادُهم قبل آلاف السنين، وأنْ لا مفرَّ من الجحيم الأرضيّ. لكنَّهم، هذه المرةَ، سيَنْسجون أسطورتهم بيدهم وعلى هواهم، وسيكونون آخرَ مَنْ يَخرج من الفردوس. وهكذا، سيضطرّ الآخرون إلى الخروج، عاجلاً أم آجلاً!

بيروت ـ القاهرة

سنان أنطون

شاعر وروائيّ عراقيّ شاب. يَعْكف حاليًا على إنجاز أطروحة دكتوراه في الأدب العربيّ في جامعة هارفرد (الولايات المتحدة).